

أصالة النبوة في ضمير محمد (ص)



« يقول التاريخ:

انَّ محمدًا (ص) وقد أجمع العرب، وخاصة قريشاً على معاداته ومقاطعته، فجعلوا منه هدفاً للعداء والسخرية، ومثلاً للكذب والافتراء - كان يستشعر ثقل المهمة الخارقة، ويحس من أعماقه تعقيدات الموقف، وملابساته المتداخلة، فمن الطبيعي أن تعتربه حالة من التساؤل عن مصير المهمة، في هذا الوسط الجذب القاحل، وقد عكس شعوره هذا بقوله، بعد أحد التجارب المريرة المؤلمة: "اللهم! إني أشكو إليك ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس...".

إنَّها إحدى التطبيقات الطبيعية لقانون التكوين البشري، فمحمد (ص) فرد من أبناء هذا النوع، المحدود الهمة والطاقة والقوة. وكان جذب الاستجابة كفيلاً بإمحاء واقتلاع جذر الفكرة؛ لأنها في الأساس للبشر، لهؤلاء المخاطبين، وليس للخلود على الرفوف العالية، ولا للمران الذهني الجرد، ولكنَّ محمدًا نبي، وهو واثق من هذه الرسالة إلى حد الكشف الحسي. إنَّ (يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ...) (المدثر/ 1-2)، سابقة بموضوعها الحي الساخن على أيِّ استشعار بالضعف. وإذا وجد هذا الاستشعار حيِّزه الطبيعي من قانون التكوين الإنساني في حياة محمد، فإنَّ صدى النداء السماوي يقوم بمهمة الإزاحة البديلة، يقرب المعادلة تماماً، وهذه الحالة تندرج في إطار القاعدة الكلية التي تصممها الآية الكريمة: (قُلْ إِنْ أَنْزَلْنَا أَنْزَارًا بِشَرِّكُمْ مِثْلُكُمْ يُوَدِّعُنَا إِنْ يَخِفُّ عَلَيْكُمْ أُلْحُوتٌ أَوْ إِنْ يَأْتِيَكُمُ الْمَوْتُ مِنْ أَيْنَ شِئْتُمْ لَا يُغْنِي عَنْكُمْ كَيْفَ أَنْزَلْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَا يُلْهِكُمْ عَنِ ذُنُوبِكُمْ أَبَدًا) (الكهف/ 110).

إنَّ أصالة النبوة في ضمير هذا الإنسان، هي نقطة البداية، ومصدر القرار، ومركز الإحالة، ومآل الإرادة، ومنطلق التبرير، وقاعدة التعليل.

يقول التاريخ:

"وقالوا له: أخرج من بلدنا، والحقَّ بمنجاتك من الأرض أغرّوا به، سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به، حتى اجتمع عليه الناس وقعدوا له صفين على طريقه، فلما مرَّ بين الصفين جعل لا يرفع رجله ولا يضعهما إلا رضخوهما بالحجارة، حتى أدموا رجله (ص).. وكان إذا ازلفت الحجارة، قعد إلى الأرض، فيأخذون بعضديه، فيقيمونه، فإذا مشى رجموه وهم يضحكون...".

هذه عينة من تاريخ استمر على هذه الشاكلة سنين طويلاً، حيث تكشف عن واقع عقيم، فاحل العطاء، يبعث على اليأس المطلق، لا يستمرئ أي مساس بعباداته وسننه وعقائده، وصاحب الدعوة غريب، تطارده شبهات السؤال المدروس والموهوم عن عقله وغايته وأمله. ولكنَّ محمدًا رسول الله، إنه نبيٌّ، وهو على ثقة صارمة بهذه المهمة الكونية الكبرى، وهو موعود بالنصر المؤزر؛ ولذا لم يأبه لهذا الصدود الجافي، ولم يرهن إرادته إلى علائم الواقع المنظور. لقد كانت ثقته بنبوته في مرتبة السبق على كلِّ شيء، ومقياس التعامل مع كلِّ معطى وكلِّ نتيجة وكلِّ موقف، ومن هنا، نفهم سر هذا الإصرار على مواصلة الصدع وديمومة الدعوة "يا عم، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله، أو أهلك فيه، ما تركته...".

إنَّ أصالة النبوة في ضمير محمد (ص) حقيقة واضحة، لأنَّها لم تسمح لإغراءات المنظور أن يتغلب عليها، ولم توكل زمام قرارها إلى حكم هذا المنظور مهما كان صارخ القسّامات، ولو خُلي محمد ونفسه المجردة، ربما استكان إلى معادلة الواقع الظاهر، ولكن هناك شيء زائد، ترامي بثقله الكوني في حنايا ضميره، فأزاح عنها إحياء الواقع الظاهر. هذا الشيء هو النبوة، الواثق من عهدها إليه، والمطمئن إلى ابتلائه بمسؤوليتها، وبذلك ترسّم بكلِّ جلاء أصالتها الجذرية في ضميره الصادق. ▶

المصدر: أصالة النبوة في حياة الرسول الكريم/ كتاب قضايا إسلامية معاصرة (26)